عبد الحكيم راضي

خمسون عاما في صحبة البلاغة

عماد عبد اللطيف

جامعة القاهرة

"من أنا؟" سؤال طالما ارتعشت به شفاه متمتمة كلما عصفت بها قلاقل الحياة، أو خطته أيد مرتعشة على فضاءات الورق كلما أرقها السعي الحميم لمعرفة الذات. هذا السؤال الذي يصاحبني – كتوأم لصيق – منذ بدأت أعي أن الكون مؤسَّس على الاختلاف، وأن هوية المرء ليست معطىً سابقًا على وجوده، أو منحة من التاريخ أو الجغرافيا أو حتى اللغة والدين، بل هي نتاج لسعيه الحثيث لتحديد موقفه من العالم. لقد وصلت إلى قناعة مبكرة بأن سؤال "من أنا؟" ليس له إلا إجابة واحدة هي: أنا هو ما أفعله الآن. فالكينونة لا تكمن في الماضي بل في اللحظة الحاضرة، وجوهر الإنسان يتحدد دومًا في معترك اتخاذ القرار. وهكذا فإن سؤال الأنا يضع الإنسان في مواجهة قراره. وكلما انحاز الإنسان في أفعاله اليومية إلى قيم العدل والخير والحرية، يكون إنسانًا عادلا وخيرًا وحرًّا، وكلما انحاز إلى غير ذلك يكون غير ذلك. لقد آن أوان نزع قناع الهويات التاريخية والعرقية والدينية التي لا تنبش إلا في الماضي، بينما تترك المرء غالبًا ضحية تلفظاته الجوفاء أو استعلائه الأعمى.

إذا كان كل منا يصوغ هويته مع كل فعل من أفعاله، فإن هذه الأفعال تؤسِّس تاريخًا شخصيًّا للمرء. وحين نسعى لمعرفة شخص ما فإننا نقوم بعملية بناءٍ لتاريخه. وهكذا نصف تاريخ هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لشياطين السلطة أو المال أو الخنوع بأنه تاريخ أسود، أما هؤلاء الذي حافظوا على أثوابهم بيضاء من كل دنس فإنهم يحظون بطيب السيرة جزاءً على بياض السريرة. وبكل أسف فإن تاريخ البشر –عبر الألفيات المتعاقبة– ليس إلا سلسلة من القذارات المخجِلة. وما هو مضيء في هذا التاريخ ليس إلا ما أنجزته قلة ممن تطيب سيرتهم؛ هؤلاء الذين أدركوا أن كينونة البشر تكمن في كونهم بشرًا، وهم لا

يستحقون هذا الوصف إلا إذا كانوا يضعون هويتهم على المحك في كل فعل يفعلونه، وينحازون دومًا إلى كل ما هو خيِّر وعادل ونبيل. ومن بالغ سعادتي أن أتحدث اليوم عن أحد هؤلاء، وهو العالم الجليل عبد الحكيم راضي.

لم أقصد حين شرعت في كتابة هذه السطور أن أتحدث عن الأبعاد الإنسانية لعلاقتي بالدكتور راضي، لكنني لم أستطع. لقد أُتيح لي من دوام الملازمة، وعمق المعايشة، وثراء التفاعل ربما ما لم يُتح لغيري ممن تتلمذوا على يديه. وبذا أعد نفسي أهلا لأن أقدم جوانب من صورته إنسانًا تتعاضد مع ما كتبته في دراسات أخرى من تحليل لبعض كتبه بما يسهم في صوغ صورته عالِمًا. وإذا كان المرء غير معزول عن عمله؛ إذ إن كلا منهما وجه عملة واحدة فإنني سوف أكون معنيًا في الصفحات الآتية بالتضفير بين وجه عبد الحكيم راضي العالم ووجه عبد الحكيم راضي الإنسان. وهي مهمة لا أعدها صعبة؛ خاصة حين يتعلق الأمر بذات شفافة متسقة مترابطة مثله.

لقد قضى شيخي نصف قرن من الغوص في بحر تراث العرب البلاغي، والتراث العربي عامة. لم يكن عمله طوال هذه الفترة قاصرًا فحسب على استخراج لآلئه، وعرضها بهية للناظرين، بل إنه ساهم – بشكل أساس– في تصحيح تصورات خاطئة أو زائفة عنه. فقد أدرك منذ نحو مبكر في حياته البحثية أن التراث لا يوجد في أذهاننا ولا يعمل في نفوسنا وسلوكياتنا إلا من خلال عمليات لا حصر لها من فهمه وشرحه وتأويله. كما أدرك أن المشكلات التي تعتري هذه العمليات هي المسئولة عن بعض تصوراتنا المغلوطة أو المزيفة أو الناقصة حوله؛ لذا فقد كرَّس القدر الأكبر من جهده في تصحيح هذه التصورات وإعادة صياغتها على نحو ما فعل فيما يخص قضايا نقدية وبلاغية مهمة. فقد قدم قراءة أسلوبية مبكرة للبلاغة العربية في كتابه (نظرية اللغة في النقد العربي)، كما تناول المفاهيم المحتلفة للفظ والمعنى التي كانت وراء الاضطراب الشائع في فهم المحدثين لموقف القدماء من هذه القضية في كتابه "ظاهرة الخلط في التراث البلاغي والنقدي بين المعنى الأدبي والمعنى الاجتماعي". كما قام بحفريات ثقافية وفكرية في فكر الجاحظ في كتابه "الأبعاد الكلامية والفلسفية فى الفكر البلاغى والنقدى عند الجاحظ". وقدم قراءة جديدة لموقف أوائل النقاد من شعر المحدثين وحركات التجديد الشعري في العصر العباسي في كتبه " النقد العربى وشعر المحدثين فى العصر العباسى"، و" النقد والتجديد فى الشعر العباسى"، وناقش

امتدادات الموقف من التجديد في الشعر في بواكير النهضة الحديثة، وذلك في كتابه " النقد الإحيائى وتجديد الشعر فى ضوء التراث". وغيرها من المسائل والقضايا التي أعمل فيها فكره وعدته المنهجية.

كانت عماد هذه العدة المنهجية عملية التفسير التي تجعل غايتها الوصول مما يقوله النص إلى ما "يقصده" أو "يعنيه". ولإنجاز ذلك تقوم بإجراءات معرفية متعددة مثل تحقيق النصوص واستكشاف العلاقات بينها عبر النص الواحد أو عبر نصوص المؤلف الواحد أو عبر نصوص عدة في أزمان متباينة، ومقارنتها، والتعليق النقدي عليها. إضافة إلى قيامه بالتنظير للممارسات النقدية والبلاغية التي تُرِكتْ دون تنظير من الدارسين القدماء. كما أولى اهتمامًا للضبط الاصطلاحي لمصطلحات هذا الحقل والتحديد المفاهيمي لتصوراته، وأفرد دراسات كاملة لهاتين العمليتين.

ربما ليس من قبيل التجاوز القول بأن هذا الإجلال الشديد لجهد الأقدمين هو العلة وراء حرص دكتور راضي على أن يقدم نصوصهم في كثير من الأحيان بلغتها، في شكل اقتباسات مطولة. فقد اختار دوما الأسلوب المباشر، الذي يفسح المجال أمام البلاغيين القدماء لكي يتخاطبوا مباشرة مع القارئ، ونادرًا ما يلجأ للأسلوب غير المباشر الذي يُعاد فيه صياغة قول البلاغيين القدماء؛ وبذلك تقترب دراساته عنهم من دائرة التحليل والتفسير بدرجة أكبر مما تقترب من دائرة الإسقاط والتأويل.

لقد اتخذت المحاولات الحديثة لتقديم المنجز البلاغي العربي مسارين أساسين؛ الأول حاول إبراز أهمية هذا المنجز من خلال المقارنة بينه وبين بعض المقولات البلاغية أو النقدية الغربية، والإلحاح على سبق المنجز العربي من خلال تأسيس علاقة مشابهة بين القديم والجديد. وينطوي هذا المسار –غالبًا– إما على تأويل مفرط للنص العربي القديم أو النص الغربي المعاصر، أو على تفريغ النصين كليهما من سياقاتهما التاريخية وتضافراتهما الخطابية الخاصة. كما أنه ينطوي على "وهم" قيمي يرجع إلى اعتبار أن المنجز الغربي هو الأعلى والأقيم وأن قيمة ما تقدمه الثقافات الأخرى يرتبط بالتشابه أو التطابق معه. وأخيرًا فإن هذا المسار هو لا تاريخي؛ فهو يتعامل مع التراث الفكري بوصفه متجاوزا لشروط الواقع الذي أنتجه؛ وهو بذلك لا يقدم لنا معرفة حقيقية لا بالنص العربي القديم ولا النص الغربي المعاصر، إذ يختزل كليهما ويشوه ملامحه ليحصل على أدنى مشابهة.

المسار الثاني يرفض قراءة المنجز البلاغي والنقدي العربي بوصفه شبحًا طاعنًا للمنجز البلاغي والنقدي الغربي. ويرى أن قيمة هذا المنجز لا تقاس بمشابهته لمنجز عصر وثقافة أخرى، بل بفعاليته في

مخاطبة حاجات عصره هو وثقافته الحميمة التي نشأ فيها. وربما كان حرص شيخي على تفسير نصوص التراث وقراءتها في ضوء ظروف عصرها نتاجًا مباشرًا لتبنيه لهذا المسار. فلم يقع أسير الربط التلفيقي بين أقاويل أو أفكار مبتسرة مجتزأة.

لقد آمن الدكتور راضي بوصفه معلمًا للبلاغة أن دارس العربية لابد أن يوضع في مواجهة التراث كما هو، حتى تتكون لديه ألفة بلغاته وأساليبه وطرقه في الحجاج، وخبرة التعايش معه، وشعور الإعجاب به وتقديره، ومهارة نقده والتمييز بين غثه وثمينه. ويرى أن إكساب طلاب أقسام اللغة العربية هذه الخبرات والمهارات هي المسئولية الأساسية لأستاذ البلاغة؛ فتعليم البلاغة ليس مجرد تعريف بقضاياها أو شرح لأمثلتها أو وصف لأقسامها وأبوابها فحسب؛ بل هو كذلك معايشة لخبرة الكتابة والتأليف، ودربة على اكتشاف مكامن فرادة النصوص البلاغية وجمالها. وقد تجلى تمسك شيخي بتعريض الطلاب لنصوص البلاغة القديمة في اختياره لمقتطفات من النصوص القديمة لتكون المادة الأساسية للتدريس للطلاب. هذه المقتطفات موزعة على مدى زمني واسع، وعلى توجهات متعددة للبلاغة العربية. ويقوم دكتور راضي بتيسير الولوج إلى عالم هذه النصوص غير المألوف للطلاب من خلال فقرات شارحة أو ممهِّدة يضعها في صدارة النصوص لتكون بمثابة مداخل لها. هذه الطريقة قد توجِد صعوبة حقيقية لدى الطلبة خاصة حين تكون النصوص متخمة بلغة اصطلاحية أو تناقش قضايا مجردة أو مرتبطة بسياقات تاريخية بالغة الخصوصية يجهلونها. كما أنها قد تؤدي إلى التعامل مع البلاغة بوصفها "علمًا ميتًا" بسبب قِدَم الأمثلة التي تُضرب لها، وتباين السياقات التي كانت تستخدم فيها. لكن هذه الطريقة تضع الطلبة مباشرة في عمق بحر التراث البلاغي القديم؛ وإذا أجادوا توظيف قدراتهم فسوف يستطيعون بعد وقت قصير استخراج لآلئه وتقديرها.

لقد كان تقدير شيخي للتراث في ذاته وراء حرصه على أن لا ينخرط في عمليات تقويضه مهما كان نقده لبعض جوانبه؛ فهو ينظر إلى التراث العربي بعين المحب؛ لكنها ليست كليلة عن العيوب، بل حريصة على الاحتفاء بمكامن الجمال. ولم يستدرجه وجود بعض التناقضات فيه، أو غلبة أشكال من التقليد عليه إلى التقليل من شأنه أو الإنقاص من مكانته. وهكذا لم يتحول النقد عنده إلى نقض، ولا المساءلة إلى رفض.

لقد علمني شيخي بسلوكه قبل أقواله أن أقدر أسلافي وأعتز بهم. وكم كان هذا الدرس صعبًا على تلميذ حرون، لم يكن من السهل على أستاذه ترويض طاقة تمرده على الأقدمين. لكنه قام بإعادة توجيهها وترشيدها؛ كان –ولم يزل– يردد على مسامعي عبارة شيخنا جميعًا؛ الأصولي المجدد أمين الخولي "إن بداية التجديد قتل القديم فهمًا". وهو يدرك أن الفهم أوسع أبواب التفهم، والتفهم أرحب بوابات الحب، والحب أفق فسيح للتعايش بلا قيود. كان –وما يزال– ينصح تلميذه المتعجل قائلا ليس بوسع من يرغب في إصلاح العقول أن يبدأ بتفريغها، وليس بوسع المجدد أن يلقي بذخيرة تراثه في البحر. ولم يزل يعلن بأريحية أن ليس ثمة ما نخجل منه في تراثنا، بل فيه الكثير مما يحق لنا أن نتباهى به إن حق لنا التباهي؛ والكثير الكثير مما يجب علينا حتمًا أن نتعلمه ونفيد منه ونقدره.

تتجلى عناية شيخي بالتراث –إضافة إلى جهده الهائل في إخراج كنوزه إلى القارئ العادي في فترة إشرافه على سلسلة الذخائر وسلسلة التراث بهيئة الكتاب– في حرصه على ضبط نصوصه؛ سواء في كتاباته، أو كتابات طلابه، أو في طبعات الكتب التي أخرجها في سلسلة الذخائر. وقد كنت –وما أزال– أشفق عليه من الجهد الهائل الذي يبذله في تدقيق النصوص وتصحيحها وتشكيلها وتجميلها. وكنت –وما زلت وسأظل– ألح عليه أن يدع هذه المهمة لغيره من معاونيه؛ وأن يهون على نفسه الإحساس بألم خطأ أفلت من المراجعة، وأن يوجه هذا الجهد الهائل إلى استكمال دراسات عكف عليها سنوات وتحتاج إلى شهور –وربما أسابيع– لتكتمل وتظهر إلى الناس. لكنه كان –وما يزال– يجيبني على ذلك بالرفض؛ قائلا: لقد خسرنا كثيرا بالتجاوز عن (الأخطاء التافهة)، فحين تعودنا التجاوز عنها، أصبحنا أكثر استعدادًا للتجاوز عن الأخطاء الفادحة، ويتابع بقوله: يا بُني ألم تكن كتب آبائنا الأقربين في النصف الأول من القرن العشرين –مع قلة إمكاناتهم، وصعوبة عملية الطباعة في زمنهم– تخلو أو تكاد من خطأ ينغص على المرء قراءته وعيشه معًا؟! أفنقبل نحن الآن أن تمتلئ كتبنا بالأخطاء إلى حدٍّ يعوق الفهم، على الرغم من سهولة التصحيح والمراجعة؟! أليس هذا علامة فساد ذوق وفساد علم؟! إنني أبغي أن تخرج الكتب التي لدي قوة على إخراجها بريئة من الخطأ كما يليق بالباحثين.

هذا الحرص على تنقية الكتب من آفات أخطاء الطباعة هو فعل رمزي لحرص أكبر على تنقية ثوب الشخصية من آفات النفس البشرية. لقد وعى شيخي أن آفات النفس الكامنة فينا جميعًا تترعرع أو تذوي بحسب استسلام المرء أو مجالدته لها. وكان حرصه على أن يبقى ثوبه طاهرًا في زمن عزت فيه

طهارة الذات ونصاعة السلوك. لقد كان زهد شيخي فيما في أيدي الناس، وتقديره لصغيرهم وكبيرهم، وتطابق قوله مع عمله، وكرمه الذي يظلل القريب والبعيد، ودماثة خلقه وتواضعه، وتنزهه عن كل الصغائر– كانت هذه الصفات جميعًا علامة على تطابق سمت الإنسان مع سمت العالِم.

لقد أتيح لي على مدار اثني عشر عامًا أن أنعم بالقرب من دكتور عبد الحكيم راضي. خلال هذه الفترة –التي أشرف فيها على رسالتيَّ للماجستير والدكتوراه– عايشته أستاذًا ومشرفًا وباحثًا وإنسانًا. وككل الأشياء الأصيلة النادرة التي يزداد تقديرنا لها واعتزازنا بها كلما خبرناها وعايناها؛ كنت في كل يوم أزداد له محبة وعرفانًا وإجلالا. وعلى مدار هذه السنوات شعرت باعتزاز خاص لكوني تلميذًا لهذا الإنسان الذي تطيب سيرته في أفواه القريب والبعيد، والذي يُجمِع كل من عرفه أنه يجسد إنسانًا ما يجب أن يكون عليه العالم. وأنه يجسد في كل فعل وكل اختيار تلك الهوية النبيلة التي تستحق منا الآن وفي كل حين آلاء الاستحسان والتقدير.